

الخلاصة

إذا كنا قد أدركنا الآن مافى جعبة الجامعات الأمريكية من رسائل نوقشت فى تاريخ مصر الحديث ، وتعرفنا عليها فان هذا لا يكتفى بل يجب مزاولة البحث أيضا فيما أجازته الجامعات الأوروبية من بحوث، وإذا كنا على بينة ببعض ما أجازته الجامعات الانجليزية خصوصا وان لندن دائما محط أنظار أساتذة وباحثى التاريخ الحديث المصريين فان هذا لا يكتفى أيضا بل يجب التتقيب فيما أجازته باقى جامعات أوروبا من بحوث فى تاريخنا المصرى الحديث ، وأن نحاول توجيه طلاب الدراسات العليا الى اندراسات الأكاديمية المقارنة لتبين مافى هذه الرسائل التى كتبت بأقلام غير مصرية من وجهات نظر مختلفة فى تاريخنا ، خصوصا وأن بعض هذه الرسائل ربما قد كتبت بأقلام مغرضة حاولت أو تحاول تشويه تاريخنا المصرى ، ومن أولى بالدفاع عن تاريخ مصر من جامعات وأساتذة وباحثى مصر . يضاف الى ذلك أنه عن طريق هذه الدراسات يمكننا التعرف على المنهاج التاريخى الحديثة فى الجامعات الأوروبية مزاياها وأوجه القصور فيها ، ونحاول أن نستكمل هذه الدراسات التى كتبت عن تاريخنا لا أن نكررها بل نضيف اليها مافى جعبة وثائقنا الموجودة فى مصر فى دور الوثائق والمحفوظات وغيرها من الأماكن المعروفة والمجهولة ، ثم نبين ماهو الغث وما هو الثمين فى هذه الدراسات حتى يوضع كل شئ فى موضعه الصحيح .

حقيقة أن جمع المادة العلمية فى أوروبا وأمريكا لم يعد هدفا رئيسيا فى حد ذاته بعد التسهيلات التى يقدمها الكمبيوتر وماكينات التصوير للباحثين وأيضا نظام Interlibrary Loan وانما الفهم لهذه المادة وتحليلها وتقييمها هو الهدف الذى تقيم عليه الجامعات

هناك رسائل باحثيها ، أما عن مصر فما زال جمع المادة العلمية من مصادرنا الأصلية مشكلة تواجه الباحثين الذين يحفرون في واقع مجتمعنا للوصول الى الحقيقة ، وكأنهم ينحتون في الصخر ، أو ينقبون عن البترول في صحراء جرداء قاحلة ليشقوا طريقهم العلمي لفرط ما يلقون من صعاب في تجميعها ، ومع ذلك فعزيمة الكثيرين من باحثينا وأساتذتنا دفعت بالمدرسة التاريخية المصرية الى الأمام دفعات قوية ، ويشهد على ذلك المكانة المحترمة التي حازتها بعض الرسائل التي نوقشت في مصر بين أوساط المؤرخين المنصفين في أمريكا وأوروبا لدرجة أن هذه الرسائل التي قدر لبعضها النشر وظهرت الى النور تعتبر حاليا من المراجع الأساسية في تاريخ مصر ، وتوجد بجانب غيرها من الكتب التاريخية لمشاهير المؤرخين الغربيين في مكتبة الكونجرس بواشنطن ، ومكتبات جامعات هارفارد وميشجان وشيكاغو وبرنستون وغيرها ، ومع ذلك فمن غير المنطقي القول بأن كل الرسائل التاريخية التي نوقشت في الجامعات المصرية كانت على المستوى المرجو منها بل أنه كما أن هناك الثمين فهناك الغث ، وهذا ينصب أيضا على ما أجزى في الجامعات الأمريكية من رسائل في تاريخ مصر الحديث ، فرغم التطور والتقدم العلمي بها فإن هذا لم يدفع بكل الرسائل الى المستوى المرموق فكما أن هناك رسائل عظيمة القيمة فهناك أيضا رسائل وجه اليها النقد لما اتسمت به من قصور .

ومن المفيد أن نذكر في هذا المقام أن معظم الرسائل التي أجازتها الجامعات الأمريكية في تاريخ مصر الحديث لم يقدر لها النشر مثل الرسائل التي نوقشت في الجامعات المصرية ، ولكن الفرق هنا يبرز في أن الفهارس والنظم المكتبية في الجامعات ومراكز البحث الأمريكية أكثر تنظيما ووضوحا من نظمنا المكتبية لدرجة تساعد الباحثين وتيسر لهم أعمالهم ، فالباحث يستطيع عن طريق الكمبيوتر أن يتعرف على الرسائل التي نوقشت حول موضوع بحثه في لحظات معدودة ، كما

يستطيع عن طريق Interlibrary loan استعارة أى رسالة من أى مكان فى جامعات الولايات المتحدة أو خارجها بدون مقابل •

ولكن نظمنا المكتبية فلم نزل يشوبها بعض القصور والتعقيدات التى ترهق الباحث وتعيق حركة البحث العلمى ، فالمكتبات الجامعية المصرية تتكدس فيها رسائل عظيمة القيمة لم تر النور بعد ، ونظرا لعدم انتظام فهرسها فقد أصبح يلبس الأمر على الباحث الأجنبى فى شأن الرسائل التى نوقشت فى جامعاتنا والتى لم تناقش ، ونرى نفس الشئ بالنسبة لبعض أقسام التاريخ فى الجامعات المصرية حيث اتضح أن هناك رسائل تكررت دون احاطة هذه الأقسام علما بها ، بل لقد وصل الأمر أن تكرر الاشراف لدى مشرف واحد على رسالة ذات موضوع واحد ، وقد يدفعنا ذلك الى أن نتساءل لمصلحة من هذه التعقيدات ، ولمصلحة من هذا التكرار ، وما هى الفائدة التى تعود على الوطن وباحثيه من تمسك البعض بالبيروقراطية العتيقة التى لاتخدم سوى التخلف وعدم مسيرة العصر الذى نعيشه •

يضاف الى ذلك أن معظم الرسائل التى أجازتها الجامعات الأمريكية والتى قدر لها النشر قد أضاف اليها أصحابها العديد من التعديلات والتغييرات أحيانا فى عنوان الرسالة وأحيانا فى بناء الرسالة نفسه ، وهذا مالم يحدث فى معظم الرسائل المصرية التى قدر لها النشر فغالبا ماتنشر كما هى وأحيانا تنشر بعد حذف الحواشى ، وبعض الفصول اختصارا للنفقات كما يحدث فى الهيئة العامة للكتاب وغيرها من دور النشر •

وبعد هذه الدراسة المقارنة حاولنا اكتمال الصورة بمعرفة من أحرز قصب السبق فى دراسة تاريخ مصر الحديث فى رسائل أكاديمية جامعية هل الجامعات المصرية أم الجامعات الأمريكية ، وما هى الرسائل التى تتكرر دراستها هنا وهناك ، وقد اتضح لنا الآتى :

ان الجامعات الأمريكية سبقت الجامعات المصرية فى بعض الدراسات ثم لاحقتها الجامعات المصرية بدراسات متماثلة ومتنوعة ، كما أن الجامعات المصرية سبقت الجامعات الأمريكية فى العديد من الدراسات ولاحقتها الجامعات الأمريكية فى بعضها ، وان لم تلاحقها فى البعض الآخر حتى الآن •

أما عن الرسائل التى تتكرر دراستها هنا وهناك فهى متعددة وان لم يفد كل من الطرفين من معظم الرسائل التى أجيّزت قبل الآخر خصوصا فى معظم الرسائل غير المنشورة وعلى سبيل المثال فمع أن سمير طه فى دراسته للماجستير عن على مبارك سبق Darrell Dykstra فى دراسته عن نفس الموضوع فان الباحث الأمريكى لم يرجع الى هذه الدراسة ، ولم يعرف أن هناك رسالة نوقشت فى قسم التاريخ بجامعة القاهرة عن على مبارك ^(١) ومع أن عبد المنعم الجميى سبق Ann Elizabeth Mayer فى دراستها للماجستير عن عباس الثانى فان الباحثة الأمريكية لم ترجع الى دراسته ، ولم تعرف أن هناك دراسة نوقشت فى قسم التاريخ بجامعة القاهرة تحت هذا الموضوع ، وقل مثل ذلك بالنسبة الى الرسالة التى قدمها محمد صادق الكاشف تحت عنوان : « أثر دار العلوم فى الحياة الأدبية فى مصر » فمع أن صاحبها سبق الباحثة الأمريكية لويز أوريان ، فان هذه الباحثة لم ترجع الى رسالته كما كان ينبغى •

ولم يقتصر ذلك على الباحثين الأمريكين بل ينصب على الباحثين المصريين سواء بسواء ، فمعظمهم لم يستند من الدراسات الأمريكية التى سبقت دراساتهم خصوصا غير المنشور منها فمع أن Michael Horn سبق سمير طه ولطيفة سالم وعبد المنعم الجميى

(١) فى مقابلة مع الباحث Dykstra بمدينة Cleveland الأمريكية

فى دراستهم عن الثورة العربية فان أحدا من هؤلاء الثلاثة لم يرجع الى هذه الدراسة ، ولم يعرف عنها شيئا ، وربما أيضا الأساتذة المشرفين على رسائلهم لم يعلموا أن هناك دراسة نوقشت فى جامعة هارفارد عن الثورة العربية ، والا كانوا قد نصحوا بالرجوع اليها .

وعن أوجه الشبه والاختلاف بين الرسائل الأمريكية والمصرية من حيث موضوعات الدراسة يتضح ماأتى :

١ — أن موضوعات تاريخ مصر السياسى نالت النصيب الأوفر من الدراسة عن غيرها من الموضوعات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية سواء كان ذلك فى الجامعات الأمريكية أو المصرية .

٢ — ان الموضوعات التى درستها الجامعات المصرية فى تاريخ مصر المعاصر بعد ١٩٥٢ تفوق بكثير ما أجازته الجامعات المصرية من دراسات حول هذا الموضوع .

٣ — ان اعتماد الباحثين الأمريكيين على المصادر غير المكتوبة بالعربية يفوق اعتمادهم على المصادر العربية ، وهذا عكس الحال مع الباحثين المصريين الذين يتخذون فى معظم الأحيان من المصادر المصرية أساسا لدراساتهم .

وبعد أن عرضنا لهذه الرسائل المتعددة التى ناقشتها الجامعات الأمريكية فى تاريخ مصر الحديث يطرح علينا السؤال نفسه وهو : لماذا يتزايد عدد الباحثين فى الجامعات الأمريكية الذين طرّقوا تاريخ مصر الحديث فى الأعوام الأخيرة ؟

الواقع أنه بعد أن بلغ اهتمام الولايات المتحدة غايته بمنطقة الشرق الأوسط عموما ومصر خصوصا أصبح طبيعيا أن تساير الجامعات الأمريكية ذلك الاهتمام فشجعت باحثيها على دراسة تاريخ مصر وغيرها من بلدان الشرق الأوسط الى درجة يمكن بها القول أن المدرسة

التاريخية الأمريكية استطاعت بدراستها الأكاديمية المتعددة في تاريخ مصر الحديث أن تغطي مساحات كبيرة من أحداثه وتطوراتها إلى درجة ليست مفيدة للأمريكيين المهتمين بتاريخ مصر فحسب ، وإنما مفيدة للباحثين والمؤرخين المصريين أيضا .

وهنا برز سؤال آخر هو إذا كان واجب كل مؤرخ أن يخلع عن نفسه كل رداء قسوى أو عرقى أو دينى ، ولا يرتدى سوى رداء الحقيقة ، ولا يهدف إلا للبحث عنها عند كتابة التاريخ ، فهل سار المؤرخون والباحثون الأمريكيون على هذا المنوال ؟

الواقع أن الكثيرين من المؤرخين الأمريكيين الذين كتبوا عن مصر الحديثة كانوا محايدين في كتاباتهم ، وهدفهم الحقيقة نفسها دون غاية أخرى وبذلوا الجهود المصنية في تعلم اللغة العربية ، والرجوع إلى المصادر الأصلية في دور الوثائق بمصر ، ولكن قلة منهم هم الذين نصبوا أنفسهم لأغراض أخرى ، كما أن بعضهم اكتفى بالمصادر الأجنبية ولم يرجع إلى المصادر التي كتبت في حق الأحداث التي يقوم دراستها وهي مصر .

وبعد تفحصنا للدراسات الأمريكية في تاريخ مصر الحديث ومؤلفيها نلاحظ الآتى :

١ — أن الكثيرين من اليهود دارسوا التاريخ في الجامعات الأمريكية اختاروا تاريخ مصر الحديث حقلا لدراساتهم ، وربما يرجع ذلك إلى معرفة بعضهم اللغة العربية سواء عن طريق دراستها أو ممارستها كلغة للحديث أثناء العيش في مصر وبعض البلاد العربية مما ساعدهم على قراءة المصادر العربية في تاريخ مصر الحديث وربما يرجع ذلك لأسباب أخرى .

٢ — لم يقتصر أمر عدم التنسيق بين الجامعات المصرية فيما بينها في عملية اختيار الموضوعات التي يقوم الباحثون بدراستها للمجستير

والدكتوراه مما أدى الى تكرار بعض الرسائل بل أن هذا الأمر أيضا ينطبق على الجامعات الأمريكية حيث أن هناك رسائل متشابهة أجازت في أكثر من جامعة ، وأحيانا في جامعة واحدة •

٣ — يلاحظ أن بعض البحوث التي أجازت في الجامعات الأمريكية قبيل الخمسينات من هذا القرن كانت تفتقر الى بعض أصول البحث العلمى فبعضها يفتقر الى ثبت المصادر ، وبعضها أهمل الخاتمة ، وعلى سبيل المثال دراسة Wilfred Smith المعنونة The Azhar Journal لاتوجد بها قائمة مصادر ودراسة Donald Nicholson المعنونة

The History of the Anglo - Egyptian Sudan.

افتقرت الى الخاتمة •

٤ — يلاحظ في تصنيف مصادر الدراسات التاريخية التي أجازتها الجامعات الأمريكية عن مصر الحديث أن بعض الباحثين يضعون قائمة الوثائق التي رجعوا اليها بعد قائمة المراجع مع أن الوثائق هي المصادر الأولية التي يجب أن توضع في المقدمة ، كما أن بعضهم في تصنيفه للمصادر العربية يضع بعض المؤلفات الحديثة التي كتبها أكاديميون ضمن المصادر الأولية بينما يضع بعض المصادر المعاصرة للأحداث ضمن المصادر الثانوية والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها الرسالة التي أجازها قسم التاريخ بجامعة نيويورك تحت عنوان :

The Reforming years of Khedive Ismail Ibn Ibrahim 1863-1879.

٥ — ان أقسام العلوم السياسية بالجامعات الأمريكية تدفع باحثيها للمجستير والدكتوراه على الخوض في موضوعات تدخل في نطاق علم التاريخ أكثر منها في نطاق العلوم السياسية ، ففترة العثمانيين ومحمد علي وحتى عام ١٩٥٢ تدخل في جامعاتنا في نطاق علم التاريخ أما في الجامعات الأمريكية فتدرسها أحيانا بعض أقسام

العلوم السياسية ، وعلى سبيل المثال هناك رسالة أجزيت في
American University عام ١٩٦٤ تحت عنوان الامبراطورية
العثمانية بين الحداثة والتقليد (٢) .

Modernism and Traditionalism in the Ottoman Empire 1790-1922.

يضاف الى ذلك أن أقسام التاريخ بالجامعات الأمريكية أيضا
لاتقف عند تاريخ معين في دراسات باحثيها لتاريخ مصر
المعاصر فهناك رسالة عن الجمهورية العربية المتحدة قدمها الباحث
Alfred Gerteing George عام ١٩٦٣ الى John's University
وكان عنوانها « مفهوم الحياد الايجابي في الجمهورية العربية المتحدة »

The Concept of Positive Neutralism in the United Arab Republic

كما أن هناك رسائل عن عبد الناصر والعلاقات المصرية السوفيتية .
وعلى كل حال فانه بالرغم من أن الجامعات الأمريكية قد شجعت
باحثيها على دراسة تاريخ مصر الحديث في شتى نواحيه فهناك
موضوعات تطرقت اليها الجامعات المصرية ، ولم تطرقها الجامعات
الأمريكية حتى الآن مثل دراسات عن الحياة البرلمانية والنيابية في
مصر كما فعل عبد العزيز رفاعي في رسالته المعنونة « تطور النظام
النيابي في مصر الحديثة قبيل الثورة العربية » (٣) ومثل « تاريخ
مطبوعة بولاق » كما فعل أبو الفتوح رضوان في الرسالة التي قدمها
للجامعة المصرية عام ١٩٣٦ ومثل مصطلح وثائق وتاريخ الحكم العثماني
في مصر كما فعل محمد محمد في الرسالة التي قدمها الى جامعة
فؤاد عام ١٩٤٣ ، ومثل دراسة عن الجاليات الأجنبية كما فعل صالح

(2) Comprehensive Dissertation Index 1861-1972, Law and
Political Science. Xerox University Microfilms, p. 402.

(3) مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ١٠٩ .

رمضان محمود فى رسالته للدكتوراه المعنونة « الجاليات الأجنبية فى مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠١ — ١٨٨٢ » (٤) .

ومثل دراسة عن التنظيمات الادارية فى مصر كما فعل محمود حلمى مصطفى فى رسالته المعنونة « التنظيمات الادارية والحكومية وآثارها فى مصر فى الفترة من ١٨٨٢ — ١٩١٤ » (٥) ورسالة نفس الباحث للدكتوراه المعنونة « سياسة الولايات المتحدة الأمريكية نحو الباشوية المصرية منذ بدء التمثيل القنصلى ١٨٢٢ الى وقت قيام الثورة العربية ١٨٨١ » (٦) .

ومثل دراسات عن تاريخ المدن المصرية كما فعل زين العابدين شمس الدين فى رسالته المعنونة بورسعيد (٧) .

ومثل دراسات عن تاريخ الجيش المصرى كما فعل محمد السروجى فى دراسته المعنونة « الجيش المصرى فى عصر الخديو اسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩ » (٨) .

وكما فعل عبد الوهاب بكر فى رسالته عن الجيش المصرى ومثل تاريخ التعليم فى عصر محمد على كما فعل عزت عبد الكريم فى

(٤) اجازتها آداب القاهرة فى عام ١٩٦٩ ، وهى مخطوط بمكتبة الجامعة تحت رقم ٨١٨ .

(٥) اجازتها آداب القاهرة فى عام ١٩٥٧ .

(٦) اجازتها آداب القاهرة فى عام ١٩٦٢ وهى مخطوط بمكتبة الجامعة تحت رقم ٣٠٥ .

(٧) اجازتها آداب عين شمس تحت اشراف الدكتور عبدالعزيز نوار .

(٨) اجازتها آداب الاسكندرية عام ١٩٥٧ تحت اشراف الدكتور محمد مصطفى صفوت وكانت بعنوان « موقف مصر السياسى والحربى ١٨٦٣ — ١٨٧٨ » .

رسالته المعنونة « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » (٩) .

ومثل تاريخ الرأسمالية المصرية كما فعل محمود متولى فى رسالته المعنونة « الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية » .

ومثل فكرة القومية العربية فى مصر كما فعل نبيه بيومى فى رسالته المعنونة « تطور فكرة القومية العربية فى مصر » وكما فعل ذوقان قرقوط فى رسالته للماجستير المعنونة « تطور الفكرة العربية فى مصر » .

ومثل دراسة حزب الأمة ، وحزب الأحرار الدستوريين كما فعل أحمد زكريا الشلقى فى رسالتيه للماجستير والدكتوراه .

ومثل دراسة عن حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية كما فعل محمد عبد الوهاب ، ومثل دراسة عن سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ١٩١٤ — ١٩٣٦ كما فعل مصطفى النحاس جبر (١٠) .

ومثل دراسات عن بعض النزاعات المصرية أمثال عبد الله النديم ومحمد شريف باشا وعلى ماهر كما فعل عبد المنعم الجميلى فى رسالته المعنونة « عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية » (١١) .

وكما فعل طلعت اسماعيل فى رسالته المعنونة « محمد شريف باشا » وكما فعل رشوان جاب الله فى رسالته المعنونة « على ماهر ودوره فى الحياة السياسية المصرية » .

(٩) أجازتها الجامعة المصرية (القاهرة) عام ١٩٣٦ وكانت تحت اشراف شفيق غربال .

(١٠) مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٣٤٥١ .

(١١) أجازتها آداب عين شمس عام ١٩٧٩ ونشرت فى عام ١٩٨٠ .

(١٢) أجازتها آداب عين شمس عام ١٩٧١ .

يضاف الى ذلك أن المدرسة التاريخية المصرية قد شقت طريقها بخطوات متقدمة الى درجة لم يعد تاريخنا حكرًا على دراسات المستشرق بل أخذنا منهم وأعطيناهم وشاركتهم وناغسناهم في الدراسات التاريخية الجادة لدرجة أن الباحث الأوربي أو الأمريكي الذي يكتب عن تاريخ مصر أصبح لا يمكنه الاستغناء عن الرجوع الى كتابات المؤرخين والباحثين المصريين حول موضوع بحثه ، وهذا يختلف عما كان يحدث قبل قيام المدرسة التاريخية المصرية بأداء دورها الأكاديمي ، ودليلنا على ذلك أن الرسائل التي أجازتها الجامعات الأمريكية قبل الخمسينات من هذا القرن قد خلت تماما من أي مرجع عربي ضمن مصادرها ، بينما الرسائل التي أجازت بعد ذلك تضمنت مراجع عربية عديدة كما استفاد أصحابها من العديد من الرسائل التي نوقشت في الجامعات المصرية ، وهذا يعني أن تطور الدراسات التاريخية في مصر واتباع المنهج العلمي والسير على قواعده قد أصبح أمرا واقعا ومعلما رئيسيا لا يستطيع أحد أن ينكره أو يتجاهله ، كما يعني أن أساتذة وباحثي المدرسة التاريخية المصرية كما ضخما من الدراسات الموضوعية الجادة التي شملت تاريخ مصر الحديث بكافة جوانبه •

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة بعد الجهد الجهد الذي بذلته من أجلها •